

بُرج عاجٍ أم جسر إرشاد ؟

المجلة الطليعية ودورها في عصرنا هذا

في الآونة الأخيرة كثر التحدث عن فوائد حضارتنا وتجيدها ، وخاصة بمقارنتها بالحضارات الاخرى ، الى حد اننا صرنا نميل الى اخذ هذه الفوائد على علاتها وننسى ان عددا وافرا منها انما كان ثمرة العزلة ومعارضة الآراء الشائعة ونتيجة مقاومة للعادات والافكار والاعراف السائدة . ونميل الى ان ننسى ان الذين يرفعون اصواتهم بالثناء والتمجيد نادرا ما يكونون الذين يبدعون ويخلقون ، بل انهم لا يقفون في العادة الى جانب الذين يحاولون ان يشقوا طريقا جديدة في عالم الفكر . ومن الصعب ان نتذكر ، او ان نتقبل ، ان المؤسسات التي ترعى غو الثقافة وانتشارها ، كالتحالف والمدارس ودور النشر ، تعمل في غالب الاحيان على كبح الجديد في حقول الفن والفكر اكثر مما تعمل على بعثه والتشجيع عليه . ورحنا نتخذ مما انجزناه وحققناه عذرا للاكتفاء والقناعة .

هذه هي المفارقة الكبيرة في عصرنا . ليس سرا ان المجتمعات الحديثة ، والشوعية منها بصورة خاصة ، هي مجتمعات جماعية ؛ وهذا لا يعني فحسب انها مركبة تركيبا جماعيا بل يعني ايضا انها مرتبطة بمثل جماعية . لا اعني بهذا ان ارادة الجماهير او افكارها هي التي تسيّر العالم اليوم ؛ فبمعنى من المعاني لا يوجد شيء اسمه ارادة الجماهير او افكار الجماهير ؛ ان ما لدينا مزيج من الاسطورة والواقع : فاسطورة الجماهير تخلق فكرة كتلة كبيرة متجانسة لا بد لرغباتها من ان تحقق ، والواقع هو ان هذه الرغبات تخلق وتستغل بغية الاحتفاظ بالسلطة والاستقرار وباستمرار الانتاج والاستهلاك بشكل مرض . هذا الوضع هو ما يشار اليه في العادة باسم التقدم . ثمة خيوط كثيرة نسجت معا وتكون منها المجتمع الحديث ، لكن ما لدينا هو في جوهره تطور ديمقراطية صناعية . ونظرا لان الديمقراطية جاءت بعد عمر الصناعة راح صنع عدد متزايد من الاشياء بما في ذلك الاشياء الثقافية - لعدد متزايد من الناس ، يتطلب سوقا حرة للافكار كما للبضائع . ومثلنا (كما بدا لها ربما ان تكون) هي مثل جماعية . فان اهداف المجتمع الحديث مرتبطة برقاهية الشعب وتربيته ورفاهيته مستواه الاقتصادي والثقافي وبالعامل على تحقيق بعض المثل الديمقراطية المعينة . ومع ان هذه المثل لم يتم تحقيقها الا جزئيا ، وغالبا ما تكون ستارا نبيلًا تختفي وراءه دوافع السلطة او النفع ، فانها رغم هذا تؤثر كثير في نوعية حياتنا الثقافية وفي تحديد معالمها .

بوسعنا ان نطلق من هنا فنتفحص المجتمع الجماعي بشكل اكثر تفصيلا . لكنني اعتقد اننا نجني متعة اشد وفائدة اكبر في هدفنا الحالي ان نتمنا في آثاره الثقافية ، وهي تبعث البلبلة نظرا لبعدها عن البساطة وكثرة على شيء من التعقيد . فالمفارقة التي نواجهها هي ، كما ذكرت ، ان ما احرزته حضارتنا من « تقدم » من شأنه في الغالب ان يقضي على الاشياء ذاتها التي وهبت حضارتنا طابعها ونوعها الفريدين . فما نفكر به بطريقة عفوية ، وربما تسرع ، كحضارتنا وبالتالي كحضارة الاكثرية قد كان بالتأكيد (على الاقل في اصله) حضارة اقلية . وان التعليم الجماعي ، وثقافة الجماهير والفئات الوسطى ، وهي تنتشر افقيا وعموديا ، وامتداد الديمقراطية وانتقالها من الاصوات الانتخابية الى الآراء - كل هذه التقدمات في حياة اكثرية الناس قد قللت

رئيس تحرير « ذي پارتيزان ريفيو » رئيس تحرير « ذي كنيون ريفيو » رئيس تحرير « ترانزیشن »

من اهمية دور الاقلية التي كانت حتى الآن منبت التقدم في الفن والفكر ، بل وهددت وجودها اطلاقا . ومن ناحية فكرية وفنية ، ما نسميه الحضارة الغربية هو ذلك التراث ومجموعة الافكار والآثار الفنية الذي يتبع قيام افكار وآثار فنية جديدة والذي تظل هذه تبده باستمرار من جديد . لهذا فان رفع المستوى الثقافي العام يعني ، على الصعيد النظري ، مجرد جعل الآثار ذاتها ، التي قد تكون قليلة نسبيا ، في متناول القادرين على استيعابها ، وجعل طريقة حياتهم وتفكيرهم جزءا من التراث الذي تنبثق عنه هذه الآثار . لكن ما يحدث هو انه في سياق ترقية طبيعة عقول الجماهير وحياتها تحبو الجذوة في طبيعة العقول والحياة التي انتجت الآثار الأصلية . ربما كان ممكنا في مجتمع مثالي ما ان لا ينزع الاستهلاك الى القضاء على سياق الابداع . فاذا نظرنا الى المشكلة من ناحية ميكانيكية ، اي كمشكلة نقل وايصال ، فانه لا يبدو ان هناك سببا ما يحتم ان يؤول نقل الكتب او اللوحات الفنية او النظريات الى اي تلف في النتاج او اي جفاف في الينبوع الذي انبثقت منه . لكن الواقع هو ان السياق الذي لدينا في مجتمعنا الحديث ليس سياق توزيع وتعليم ، على المستوى الذي تتبع الآثار الأصلية ، بل هو سياق تبسيط وابتذال واختصار ؛ واننا ايضا ننتج مواد ثقافية تكون بديلا حصول وتوم بانها حقيقية لكنها سهلة للهضم والقبول ، ونتيجتها في آخر المطاف تثبيط عزيمة الناس عن بذل الجهود اضافي بغية تناول المواد الحقيقية ، وبالتالي جعلهم عاجزين عن التمييز بين تلك وهذه . ان كانت لدى هؤلاء شكوك فيما اقول ، فليلق نظرة على الولايم الثقافية التي قولها لنا المجلات الشعبية الواسعة الانتشار: على تلك المزيج من البذاءة واقاويل المجتمع والحذلق ، مرفقة ببعض كتابات جدية ، مما يجعل هذه المجلات قراءة جيدة للقارئ ذي الوزن وقراءة ثقيلة للقارئ الخفيف .

كيف تم كل هذا ؟ نعرف ان ما نسميه الحضارة الغربية كان حتى عهد قريب حضارة ارسطراطية، وهذا هو ان انتاجها واستهلاكها كانا يمان في معظم الاحيان عن طريق نخبة ، كانت نخبة نبلاء في عصور الاغريق الرومان ، ونخبة رجال دين في القرون الوسطى ، وبعدها نخبة اجتماعية واقتصادية . لكن بمجيء الثورة العلمية صار القضاء تدريجيا على النخبة القديمة ، وقامت مكانها نخبة جديدة غير واضحة الاهداف ولا المقومات ومن وصفها بانها مزيج من نخبات عديدة مختلفة . فهناك من جهة نخبة موهوبة ارسطراطية لا تعنى الا بتفكيرها وفنونها ورؤاها ولا تقيس النجاح الا بما يقوله فيها من هم على شاكلتها ويطبقون اعل مقاييس حرفتهم . هناك من جهة اخرى نخبة ثانية ، هي ايضا ماهرة ومكرسة ذاتها لما تعتقد انه حرفتها ، لكنها تقيس النجاح بالربح اكثر وبرد فعل جمهور اوسع وبقياس المال والشهرة في احيان كثيرة . هذه النخبة هي الارض التي تنبت منها معظم الذين طبقت شهرتهم الآفاق . وهناك ايضا نخبة من سحرة الثقافة الذين يستطيعون ان ينتجوا ثقافة وضعاها اية حاجيات تستطيع الاسواق الثقافية استيعاها آنذاك . عقول افرادها مقبولة لتناسب ذلك الاخير ، وهم يتحدثون كأنهم يقودون حملة صليبية لرفع مستوى جمهورهم ولو بمقدار يسير . عن هذا نتاج ايضا ينبثق بعض الذين طبقت شهرتهم الآفاق . وهنالك اخيرا النخبة الاكاديمية وهي تتألف من باحثين محققين يحافظون على المستوى ولا ينخفضون به ويدربون ذوي الاختصاص ، لكنهم غالبا ما يتصرفون كأنهم يعمدون نشنا ليتعرفوا الى مكانهم في الماضي والقديم . وليس بدعاة للاستغراب ان تقود الفروقات بين

هذه النخبات وجماهيرها ، على الرغم من تداخلها لحد كبير ، الى شيء من القوضى .

ربما كنت اصف مجتمعات جديدة كالولايات المتحدة اكثر مما اصف مجتمعات قديمة . لحي اعتقد ان بإمكاننا القول ان المجتمعات الجديدة تبدو انها هي المثال الذي تحتذيه المجتمعات القديمة فيما يتعلق بأمر الثقافة . ولا حاجة لي بان ادرس هذه النقطة بتفصيل وتطويل اذ انها قد عولجت بنباهة وافاضة (لأول مرة كما اظن) في كتابات ده توكفيل ، الذي كان يكتب عن اثر الاساليب الشعبية الدارجة والايمان بالمساواة على الافكار المتعلقة بالسلطة والتراث والمقاييس في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر . ونرى في الاتحاد السوفييتي ، اكثر المجتمعات حداثة ، شيئا آخر . فقد قضي فيه فيما اعرف قضاء يكاد يكون تاما على التراث الذي كان يضم شيئا من ارسقراطية الفكر واقصى الوان الثورة والسويداء ، التي يعد نيتشه نموذجها الاصلي الحديث . ووقيت الفكرة التقدمية الشعبية فاصبحت مذهبا . ولتحقيق هذا كان ضروريا انتاج نخبة جديدة ، نخبة سياسية واجبها ان تضبط شؤون الخيال وان تجد ايضا اسلوبا قوميا للتعبير . لكن بدأت تظهر على النخبة السوفيتية في الآونة الاخيرة دلائل التفسخ ، اذ شرع كثير من الكتاب والفنانين الشبان يصرون على ان يكون ولاؤهم لمواهبهم وفنونهم فوق ولائهم السياسي . وفي هذا يلتقي بالطبع ادباء روسيا وفنانوها بالكتاب والنقاد الجديين في العالم الغربي .

وهكذا فاننا نشهد صراعا (ربما كان ظاهريا فقط) بين فوائد المجتمع الحديث الذي يدعي انه ينشر الثقافة والديمقراطية نشرنا واسما وبين الثقافة التقليدية ، ثقافة النخبة التي تعنى بنوعية الاثر اكثر من عنايتها بعدد الاشخاص الذين يصلهم ذلك الاثر . وسأعود الى بحث هذا الصراع بتفصيل بعد قليل . لكن اذا افترضنا الآن كما يفترض الكثيرون ان الصراع قائم ، فاننا يماهنا اختيار مستحيل هو اشبه بالاختبارات التي تولفنا منها الاحاجي . فهناك بعض المفكرين ، نجدهم خاصة في زمرة علماء الاجتماع ، الذين يزعمون ان الاستغناء عن الثقافة (خاصة وانها ملك لفئات معينة محدودة ، بل وتتسم بالاعتلال والشذوذ) هو ثمن بخس يجب دفعه لقاء احرار تقدم شاسع في التربية وسبل الاتصال يشيح لعدد متزايد من الناس ان يشاركوا في ذخائر حضارتنا . ويصر هؤلاء المفكرون الديمقراطيون ان الرومنطيقين المدمنين لماضي والقديم ، او نرجسيو الادب المدمنين لانفسهم ، هم وحدهم الذين يتمسكون بجم غابر قديم . هذه حجة هؤلاء الاحصائيين الثقافيين الذين يحصون الرؤوس بدون ان يتساءلوا عما في دواخلها والذين ينتشون بفكرة نشر شيء ما يشبه «الثقافة» لحد يجعلهم لا يعبأون بالتساؤل عن ماهية الشيء الذي ينتشرونه . وعلى كل ، فمعها كان موقفهم بليدا او سخيفا ، فالواقع هو انهم قد اتخذوا موقفا . واذا كان الخيار ، كما قلت قبلا ، هو حقا بين الفن والحياة ، بين الثقافة كما عرفناها والمجتمع الصالح ، فان خيارنا بالتأكيد لن يكون خيارا لا انسانيا . لو كان هذا هو الوضع في الواقع لكننا في مأزق لا نخرج منه ، لكنني ان اجبرت على اتخاذ موقف فاني بلا شك سأصوت الى جانب الحياة ضد الفن لان التصويت الى جانب الفن ضد الحياة هو نوع من البربرية الطبيعية .

لحسن الحظ انه ليس علينا ، لا منطقيا ولا انسانيا ، ان نختار هذا الخيار . فاني بكل بساطة لا ارون كيف يمكن للحياة الجيدة او حق للحياة الافضل للجمهور الغفير من الشعب ان يهددها مثل ذلك التفكير والشعور الذي انتج اشخاصا كجون صن او كولريدج او بروست او كافكا او اليوت . واننا لا نستطيع بالطبع ان نزع بان مستوى المعيشة قد انخفض نتيجة وجود وليم فوكزر الروائي او الشاعر روبرت لويل او الرسام جاكسون بولوك ، او ان المدارس او المتاحف قد انحطت . لعل كل ما تأثر هو غرور الذين يريدون ان يدنس كل شيء ليصبح في مستواهم ، ومصالح الذين يحترقون ويتاجرون بتوزيع الثقافة على عدد غف من الجماهير . (وكثير من افضل الكتاب والمفكرين لا يصلون الا عددا محدودا من القراء - في بداية الامر على الاقل ، الى ان يصبحوا جزءا من التراث الكلاسيكي - وهذا يحدث سريعا في الوقت الحاضر لغايات تجارة والتبرم من ان المؤلفات الكلاسيكية التراثية لا تجد الاقبالا محدودا) .

ولعله من المناسب ان احدد بشكل ادق ما نعنيه بحضارتنا ، التي وصفناها بانها حضارة نخبة او حضارة اقلية . لا اعرف مطلقا كيف سيكون حال الفن او الفلسفة في مجتمع مثالي ، مثلا لا اعرف بالضبط كيف

سيكون المجتمع المثالي ؛ والواقع اني اظن ان مثل هذه التكهّنات وخاصة في حال الفن لا يمكن ان تكون اكثر من لعبة فكرية ، ذلك لان نوع الفن الذي عندنا ، بل وفكرته ذاتها ، ينشأ عن نوع المجتمع الذي عندنا . من المحقق انه منذ بداية القرن التاسع عشر تقريبا يمكن تحديد مفهومنا للفن وما يعرف « بالتيار الرئيسي » للآثار الفنية ذاتها بشكل مغاير لكثير من المؤسسات في الغرب ولنوعية الحياة فيه . ربما كنت ابسط الامر قليلا ، لكنني مع هذا لست اشوّه . فان الجزء الاكبر من الفن لم يعبر عن رؤيا الجماهير الغفيرة من الشعب (ولو انه ربما كان احيانا يمثلها) ؛ بل ان الفن الحديث على العكس قد عبر عن الاحلام والقلق والمثل لدى فئة متقدمة على سواها ومتميزة في الغالب بجراثمها ومواهبها وذكائها، فئة افترضت انها بمجرد اثباتها مقدرتها ووجودها فانها تتكلم باسم البشرية . لقد كانت هناك حالات شاذة عديدة ، لكن نستطيع ان نقول بصورة عامة ان الفن الحديث حقا قد كان اما ثوريا بصورة علنية او مبتعدا عن الجمهور او متطلعا الى عالم افضل او ناشدا الكمال الفني (ومنغلقا في العادة على نفسه) ، وغالبا ما كان يبدو كأنه ملحمة للحساسية الجريحة وضعية الوجود الحديث . وفي الوقت ذاته ، كانت للرسم الحديث وللادب الحديث رؤيا للوجود اكثر حرية ، واكثر سعيا وراء التجارب ، واكثر اخلاقية ، واكثر مسؤولية ازاء ذات مثالية وانسانية مثالية . اما في حال الفكر الحديث فيصعب الوقوف على جوهره ؛ لكنني اعتقد ان بإمكاننا القول ، بدون ان نبالغ في الاعتباطية او في التعسف ، ان معظم ما احرزه الفكر من تقدم كان نقديا وناشدا مجتمعا افضل ولا يحظى بالرضى العام ، مع انه كثيرا ما كانت هذه الصفات تقرر باهداف علمية او بدت بانها علمية . غير ان كثيرا من الفكر الحديث يعكس بوجه عام القلق والتبرم الذي نجده بصورة اوضح في الفن الحديث .

هذا في جوهره هو ما نعمل الآن على توطيده ، او على الاستغناء عنه ، او على نشره . (وربما كان عليّ ان لشدّد اني لا اتحدث هنا عن « الثقافة » بمعناها الواسع الذي يكاد يشمل كل شيء - كالافلام والنكت وهزليات الاطفال والفن التجاري) . وكما قلت سابقا ، يشعر المرء ان عليه ان يكون مستعدا للاستغناء عن هذه الثقافة التي كنت اتحدث عنها ، اذا كان هذا يجعل الحياة اكثر رفاهية واعتمق معنى للشعب بكامله . لكن المشكلة في موقف كهذا هي انه ليس هناك مبرر قط للاعتقاد بان حياة فرد واحد (ولنقض النظر عن الانسانية كلها) ستزداد غنى وثراء نتيجة القضاء على الفن والفكر الترائين او حتى تخفيض مستواهما . ولا حاجة لي الى تذكير القارئ بان دعاة الثورات المتطرفين واللايديقراطيين يسارعون في العادة الى رفض بعض معالم الثقافة رفضا قاطعا باسم التاريخ او التقدم او الانسانية او مجرد الثورة لا غير . وقد كان الشيوعيون المستمدين على الدوام ، كما نعرف ، لتقييد ولكبح حرية الفن والفكر ، التي كانوا يعنون بها حرية انتاج فن وفكر ترائين « برجوازيين » ، بحجة ان هذه القيود ستعمل على الاسراع في تطوير مجتمع افضل . لكن الدرس الوحيد الذي يمكن ان نتلقاه من جميع هذه النظريات التقدمية ، التي تفترض ان رفاهية الانسانية هي هدف منفصل عن نوع الفن والفكر الذي منه تتألف حضارة الغرب ومغاير له - هو انها تقود الى تدهور الفكر او صبه في بوتقة واحدة ، بدون افادة البشرية ككل باي شكل من الاشكال . وقد كانت القيود

مفجعة مزيدا من القيود ؛ وادى بث « الثقافة » الى اغراق السوق بمنتجات قليلة الجودة . الا ان هناك نقطة اخرى اكثر اهمية يجب التشديد عليها . فالواقع ان كل ما أحرز من تقدم في الميادين المالية والاخلاقية والاجتماعية في العصر الحديث قد انبثق عن الثقافة الجديدة التي لا تحظى بالرضى العام والتي تنمنا الآن او تغزوها المجتمعات الجماعية الجديدة . ولأقل بكل صراحة وبدون مواربة: ان هذا التيار الرقيق يفتدى في المجتمع بكامله طاقته الخلاقة وخيلته وكان مصدر الفن الجديد والادراك الجديد والآراء الجديدة في ذلك الآراء المتعلقة باصلاح الاجتماعي والثورة الاجتماعية . وهل نحتاج الى دليل آخر ونحن نرى ان كتاب والفنانين في البلدان الشيوعية يحاولون ان يحددوا علاقاتهم بمثل التراث الغربي وهم يفتشون عن أشكال وآراء جديدة بحق وحقيق ؟

اشدّد ما نحتاج اليه في هذه الفترة هو ان نجد طرقا لحماية وتشجيع الثقافة التي تطلق عليها اوصاف متعددة . نسمي ثقافة جديدة ، او ثقافة نخبة ، او ثقافة اقلية ، او ثقافة متقدمة على سواها ، او ثقافة لا تجارية .

(ثمة فروق في المعاني بين مصطلح من هذه ومصطلح ، لكنها تشير جميعا الى مظاهر مختلفة للشيء ذاته) .
ثمة طرق كثيرة لمقاومة انحلال الحضارة ، وربما كان اهمها ان نعمل في نطاق مواهبنا ، لانه لا يمكن ان يتأتى
فن وفكر متقدمان وجدبان الا اذا احرز تقدم في ميادين الفن والفكر . لكن هناك ايضا ما يمكن ان نسميه
سبلا مؤسسية ، كالسائدة الحكومية مثلا التي تختلف بخصوصها وجهات النظر . وانا شخصيا تعينني اكثر ما
تعينني مؤسسة اخرى ، هي المجلات الادبية ؛ وانا مقتنع (ولو ان موضوعيتي هنا ستكون بالطبع موضع
جدال) ان هذه هي اشد الوسائل فعالية لحفظ التراث والتكرس للذين ذكرتها حين ولبعث فن جديد ونقد
ادبي واجتماعي من الطراز الاول . وقد جرت العادة بان يطلق على مثل هذه المجلات اسم « المجلات الصغيرة » ،
لكني اعتقد ان تسميتها بالمجلات « الجدية » او « اللاتجارية » ادق ، لان « صغر » جمهور قرائها ليس شيئا
تعمده تلك المجلات تمعدا بل هو شيء تفرضه عليها طبيعة الاشياء . ولا اعرف مثالا واحدا على محرر مجلة
جدية يسعى لان يمنع الناس عن شرائها او قراءتها بغية الاحتفاظ بعدد المبيع صغيرا . كما اني اعتقد انه من
الافضل تعريف هذه المجلات من حيث الاهداف التي تهدف اليها والخصائص التي تتسم بها لا من حيث ارقامها
واحصاءاتها وعدد قرائها . وباختصار فاني انما اطبق على هذه المجلات المقاييس اياها التي نطبعها في العادة على
الروايات او القصائد او المقالات الجدية الجيدة : مقاييس الهدف والنوعية . فاذا نظرنا اليها بهذا المنظار
وجدنا ان المجلات الادبية الجدية اللاتجارية هي جزء من الادب الجدي .

وكما نتجنب التشويش ، لنتابع التعريف والتحديد لحظة اخرى . ان مجلة كالمجلات التي اتحدث عنها لا
تنشر بقصد تحقيق ربح مادي ولا توجه الى جمهور كبير وهي مصطنع ، كما هو الحال في معظم مجلاتنا
التجارية . انا لا انكر ان في بعض مجلاتنا التجارية مقدارا معيناً من الجدية ومن الامانة الفكرية ، لكن على
هذه المجلات ، ان كانت تطمح في النجاح ، ان تعنى « بالسرعات » الصحفية من نوع ما ، لان ارتباطها اشد
بالرأي العام منه بالادب والفكر الاصيلين . زد على هذا ان المجلات التي تبسيع مائة الف نسخة من كل عدد من
اعدادها هي ايضا صغيرة عندما تقارنها بالمجلات الكبيرة فعلا او بما تستطيع السوق ان تتحملة . ويخيل لي
ان ابرز ما يميز المجلات الجدية اللاتجارية الادبية والثقافية هو ان ما ينشر فيها انما يقرره محرروها على ضوء
رأيهم في نوعيتها واصالتها واتجاهها وهدفها . وهذا كما هو واضح هو ما يبقيا « صغيرة » وبعيدة عن الاضواء
العامة - ومفلسة على الدوام .

واذا كانت المجلات الادبية تهدف الى النوعية فان علينا بالطبع ان نحكم عليها بمقاييس نوعيتها . وواضح
ان عشرات المجلات التي تبرز وتنافس كل عام ليست جميعها جيدة ، بل وليست جميعها كما تدعيه هي . وبعضها
لا يبيع اكثر من مائتي نسخة ، وبعضها اقل من ذلك . ومنها ما هو كثير الادعاء والتظاهر ، ومنها ما يتزعم
بزي المجلات الطبيعية من حيث الاخراج والطباعة ليس الا . وكثير منها يصدرها محررون يشك في سلامة
عقولهم ، يخيل اليهم ان انعدام وجود الذكاء هو جواز سفر الى الخلق والابداع . لكن مع هذا كله ، فان
هذه المجلات حتى في اسوأ امثلتها ليس ضررها الا زهيدا جدا ولا يتأثر به غير عدد اقل بكثير من الذي
يتأثر بضرر المجلات الشعبية الرديئة الواسعة الانتشار ، وهي فوق ذلك تساعد ولو لحد زهيد على ان تبقى
حيا تيارا من التلقائية والهواية ومعارضة الآراء والاضاع السائدة ، تيارا هو التربة التي تنبت منها المواهب
الجديدة المبتكرة . والواقع ان خيرة المجلات الادبية اللاتجارية قد كانت اول من نشر معظم الآثار الاولى
للكتّاب والنقاد الموهوبين في سائر انحاء العالم . الا ان هذه المجلات بالاضافة الى كل ذلك مهمة اخرى ذات
شان كبير ، هي الاحتفاظ بطائفة من الكتّاب والقراء الجديين ، طائفة كانت في الماضي توجد بشكل طبيعي
وتعمل على حمل اعباء ثقافة المجتمع . واطن ان بإمكاننا ان نؤكد تأكيداً قاطعاً انه بدون مثل هذه الطائفة
من رجال الثقافة تحمل بنا فوضى فكرية . اذ من اين كانت لتأتي الموهبة ويأتي الذكاء اللازمان لظهور فن جديد
وآراء اجتماعية وسياسية جديدة ؟

في الآونة الاخيرة اخذ البعض يزعمون ان المجلات الشعبية والتجارية الواسعة الانتشار قد شرعت تنشر
ادبا وفكرا جديين ، مقللةً بذلك من اهمية المجلات الصغيرة اللاتجارية . اني اعتقد بكل صراحة ان هذا

ليس الا وهما ثقافيا ، لان ما تفعله المجلات الكبيرة ما هو الا انها « تتبّل » محتوياتها بكتابات المؤلفين الشهيرين ليست في العادة بمستوى كتاباتهم الجيدة وتشرها لمجرد كونها مملوءة بامضاهم . وهي عندما تنشر شيئا لكاتب جدي فان ما تنشره له يبطل تأثيره نظرا لما يحيط به من جميع الجهات من رسوم هزلية وصور فذرة ومقالات تقصد منها الاثارة او توجه الى القارئ العادي المتوسط . فواضح لذا ان هناك خطرا زهيدا جدا بان تقتصب هذه المجلات مهات « المجلات الصغيرة » . بل على العكس من ذلك ، عندما تنشر المجلات الكبيرة اشياء غير موجهة او محببة للقارئ العام (وانا لا اهاجم ذلك ، خاصة لانها تدفع لقاءها مبالغ هائلة) ، عندما تنشر اشياء تعودنا ان نجدها في المجلات الصغيرة ، فهذا دليل على اتجاه جديد نجده اليوم عندنا ، هو تقنين الثقافة وصبها في قالب واحد . صحيح ان المجلات الشعبية الجماهيرية ليست الآن بعيدة عن الفن الاصيل المجدد بالمقدار الذي كانت عليه في الماضي ، وهذا حقا امر حسن في كثير من النواحي . لكن في الوقت ذاته ، عندما تدمج هذه المجلات الفن الجيد والرياء ، والفن الجدي والبذء ، والفكر وثرثرات المجتمع ، فانها تنتج اطباقا ثقافية يجتمع فيها ما هو محبب للجمهور وقابل للبيع وما هو مسفسط مخدلق - لكنها تجمع مما اشياء كان يجب ان تظل منفصلة عن بعضها البعض ، فيتشوش جمهور القراء الى حد انهم يفقدون كل مقدرة على التمييز بين الاشياء . وتكون النتيجة عكس ما يزعم انصار هذه الفكرة في العادة : فبدلا من ان تزيد في شهرة الجمهور العام للفن الجدي ، تشجع هذا الجمهور على الاعتقاد بان على الفن ان يجعل بشكل من الاشكال سائغا مقبولا له ، وانه والمقبلات المختلفة من صنف واحد . ولعل بعض الناس يعتقدون ان على الكتابات الجديدة ان تغلف باطار جذاب . لكن رغم كافة الاغارات التي تقوم بها المجلات الشعبية ووسائل « الثقافة » الاخرى على الكتابة الجديدة ، فان معظم الكتابات التي ليست بقلم مؤلفين مشهورين او ليست سهلة او ليست ممتزجة بالزى الشائع ما زالت حتى الآن لا تلقى الا اقبال جمهور صغير محدود .

وتصبح طبيعة المجلات اللاتجارية اوضح لنا اذا نظرنا اليها كشكل من اشكال النقد الادبي والثقافي . فهي ليست مجرد مجموعة من القصص والقصائد والمقالات ؛ بل هي ، من خلال انتقائها لمحتوياتها ، تأكيد لمقاييس وقيم وآراء والتزامات وتساولات وشكوك حول الفن والمجتمع . وهي تصبح ، عن طريق المواد التي ترفضها والتي تقبلها على السواء ، وعن طريق وجهات النظر التي تروجها ، فعلا ايجابيا للنقد وللخلق ، شأنها في ذلك شأن اي اثر روائي او نقدي ادبي . وهي تمد جمهور قرائها (وهو مثاليا وكما يفترض ، جمهور مستنير ومعني بصير الفن والمجتمع) باحساس بالروابط بين المواهب الجديدة وبين الاجواء والافكار المختلفة التي تشغل اهتمام اهل الفكر . ان جمهور قرائها ليس مجموع الذين يبتاعونها او يشتركون فيها فحسب ؛ بل هو يتألف من اناس يعينهم حقا ما تفعله المجلة ، ويعاملونها كما لو كانت ملكا عاما . وكل من يعمل في مجلة كهذه ، من السكرتيرة حتى رئيس التحرير ، يلتم حوله باستمرار قراء يشعرون بان العدد الاخير قد خذلهم او اغاظهم او خيب املمهم ، كما لو ان المجلة ملك لهم .

واني لا اعرف شخصا واحدا لا يعتقد بانه يستطيع ان يحرر مجلتي خيرا بما احررها انا . ويبدو احيانا ان القراء ما هم الا محررون خائبون - وهذا بحد ذاته يكفي لتعليل انتشار المجلة انتشارا محدودا . فلا كنت اشد في الفقرات السابقة على التراث بقدر ما اشد على الاصاله او الجدة كقوة خلاقة . ولعل السبب هو ان فكرة الامريكيين عن التراث والجماعة والاستمرار فكرة واهية ، وهم كثيرا ما ينظرون الى التراث كشيء يحد من التقدم . ففي كل مجتمع في طور التغير والتبدل يكون التشديد على شيء مغاير لهذا - على ابقاء المستقبل مفتوحا على مصراعيه وعلى هدم اية معتقدات وعادات تقف في الطريق . ينجم عن وجهة النظر هذه انحطاط والجدة ، وهذا امر جيد وله فائده بصوره خاصة في المجتمعات الكسولة القاعدة الهمة . لكنه كذلك الحال يعلق اهمية كبرى على الجدة ويقود الى تهاون في المقاييس التي تقاس بها الاشياء الجديدة . لهذا على المجلة الادبية في بلد كهذا ان ترفع المقاييس والمستويات والتقاليد كما عليها ان تشجع التجارب والآراء ليبارضة المغامرة .

لما في المجتمعات الاكثر تراثية ، فتبدو المشكلة على العكس تماما . ففي انكلترا مثلا نجد المؤسسة الادبية

والفكرية واسخة الاركان الى حد يجعل بإمكان الجميع من اليسار حتى اليمين ان يتسلوا بمحاولة القضاء عليها. وحجتهم ان قوة التراث عظيمة بحيث يصعب حتى على من هم بعيدون عنه جدا ان يكسروا القوانين . وهذا يفسر عناية الفئات اليسارية فكريا في انكلترا عناية فائقة بتوسيع آفاق الثقافة والتربية وباعطائها قالباً ديمقراطياً . وهو يفسر ايضا سعي الكتّاب اليساريين في انكلترا وتفتيشهم عن الفضائل الخبيثة « لثقافة الطبقات العاملة » - وهو سعي اقلعنا عنه في الولايات المتحدة في آخر الثلاثينات . فبعض النقاد مثل وتشرد هوجرت (الذي احترم كثيرا من كتاباته) يصلون حدا يجعلهم في النهاية يؤهلون طريقة حياة لدى الطبقات العاملة تتأني عن التأخر والحرمان . كما ان الفئات اليسارية ، التي بطبيعتها تصب اهتمامها على فكرة الجماهير ، تجد نفسها منساقا مع تأليه الجماهير ، الذي تبين انه ليس خيرا كل الخير على الثقافة ، لكنه خير على التجارة . والسخرية في هذا الوضع ان الالتزام بالتراث الحديث يقرن بالمحافظين ، بينما تنبعت معارضته في العادة عن الفئات المتحررة واليسارية . وقد قادت المذاهب المتحررة واليسارية الطريق ، كما قلت سابقا ، الى الاتجاهات الاكثر وعيا اجتماعيا والاكثر شعبية والاكثر مساواة في الفن والفكر . فعندما يقوم ناقد مثل كنت تاينان مثلا بمهاجمة كتاب كارجين يونسكو وجان جينيه لما فيها من قساة وحذقة وبامتداح كتاب آخرين كآرثر ميلر او المسرحيين الانكليز الشباب الذين يأخذون جانب الشعب ، يكون منسجبا مع نفسه . ومن ناحية اخرى لا شك بان بعض الافكار « الاقلية » والمفرقة في التجديد قد ارتبطت بوجهات نظر اكثر محافظة وبكتّاب مثل اورتيغا ي غاسية وت . س . اليوت - وان يكن يجب التمييز بين المذاهب والفن ذاته ، بين مقالات اليوت مثلا عن الثقافة وبين شعره ، وبصورة خاصة شعره المبكر . انا بصراحة لا اعرف الى اي مدى هذه الصلات بين وجهات النظر السياسية والثقافية هي طبيعية وضرورية ؛ لكن ربما كان المزيج المثالي هو الدمج بين سياسة ديمقراطية وثقافة لا ديمقراطية ، وهو اشبه بما يمكن ان نحصل عليه اذا جمعنا مثلا بين الدكتور ف . ر . ليفز والسير تشارلز سنو .

لقد جرى التعبير بصورة دراماتيكية عن المحافظة على الروح التي اعطتنا الفن الحديث والفكر الحديث ، بفكرة الخيانة . فجاء اول كتاب جوليان بندا « خيانة المثقفين » ، وفيه تقوم الخيانة على الانهاك بالسياسة . وصارت الخيانة تقوم فيما بعد على تجنب السياسة . وفي الآونة الاخيرة تغير الوضع تغيرا جذريا ، واصبحت الخيانة مسألة كون المرء غير صادق مع نفسه ومع حرفته ومع « طبقته » الفكرية . لكن اذا استمر سياق تفنين الثقافة وقتا طويلا ، فقد تختفي المسألة كلية . او ربما اصبح ما هو جديد ، وما هو صغير ، وما هو غير معترف به ، ربما اصبح يعدّ خيانة - لكنه بالطبع سيعدّ كذلك لفترة وجيزة فقط ، لانه اخذ يصيب من الاصعب فالاصعب تجنب الوصول الى الكبر والشهرة - وبسرعة .

وليم فلبس

المجلة الادبيّة ، أهيّ في طريقها الى الزوال ؟

اطن ان بوسع المرء ان يجيب على هذا السؤال بسؤال آخر : الادب ، هل هو في طريقه الى الزوال ؟ ذلك انه لا معنى لفصل الناقلة عن البضاعة التي تنقلها . ولا شك ان الجواب على كلا السؤالين هو ، في الوقت الحاضر ، النفي الواضح . فطالما بقي اي عدد من القراء ، المهتمين بالفنون والنقد اكثر من اهتمامهم بأي شيء آخر ، فسيظل الكتّاب يكتبون وتستمر المجلات بالنشر .

غير اني اطرح السؤال عن « الزوال » كمسألة نسبية . فالقصد منه ان ننظر الى الاهمية النسبية للاهتبات الادبي من بين كل الاهتمامات الاخرى ضمن الكيان الشامل المعقد للحضارة المعاصرة - والقصد منه ان نقول ببعض التخمينات عن الحاضر والمستقبل . فان استمررتنا بلهجة السؤال ووضعنا السؤال بمصطلحات النشر قلنا : هل المجلة الادبية الخالصة هي الآن في طريق الانحدار الى مستوى مجلة الهواية ، بحيث ترادف تقريرا في الوزن الحضاري « مجلة الاسلحة القديمة » او « المجلة الشهرية للقوارب واليخوت » ؟ او هل هناك امل في